

عن أن يواجه بالحق من يستحي منه، فيترك إنكار المنكر عليه وأمره بالمعروف، وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف في العادة. والجواب ما أجاب به ابن الصلاح وغيره من أن ذلك المانع ليس حياءً حقيقياً بل صورياً وإنما هو عجز وخور ومهانة، وتسميته حياءً من إطلاق بعض أهل العرف، أطلقوه مجازاً لمشابهته الحياء الحقيقي، وإنما حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ونحو هذا، ويدل عليه ما ذكرنا عن الجنيد" اهـ.

يفهم من كلام الإمام النووي - رحمه الله تعالى - أن الحياء على مراتب: أعلاها مراقبة الله - تعالى - فيما أمر ونهى، ومنها معنى يتعلق بالتعامل بين الناس.

ومن كلام ابن علان أن الحياء منه محمود ومنه مذموم، وأن المذموم ليس بحياء على الحقيقة وإنما سمي به للامتناع لا غير، وهو الذي يطلق عليه الخجل. فالخجل خلق يحمل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ضعف في نفس صاحبه. أما الحياء فلا يمتنع من هذا وهو (لا يأتي إلا بخير).

فترك القبيح ينعكس على الإنسان نفسه، كما على مجتمعه القريب والبعيد، فبأمن الناس شره، ويأمنون بربه وأدبه. أما لو أنه سلك مسلك القبائح فسوف ينعكس ذلك على سلوكه وعلى مجتمعه القريب والبعيد، فيتحول هذا الإنسان بالقبيح المتلبس به إلى مصدر قلق وإزعاج وخوف وإجرام. وهو من مقصود قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((إذا لم تستح فاصنع ما شئت)).

وما الشرور التي تطغى على المجتمعات اليوم إلا ثمرة من ثمار انعدام خلق الحياء عند الناس. ولن يجد ذو عقل مشقة في استنتاج ما عكسه ترك خلق الحياء على المجتمع الذي يعيش فيه. مع العلم أن العالم كله اليوم بات أشبه بمجتمع واحد، لذلك فإن ترك الحياء في مجتمع مثل أمريكا مثلاً سيجد صداه في مجتمع مثل المجتمع اللبناني، ذلك أننا في هذه المنطقة من العالم، وأقصد بها المنطقة العربية التي يشكل لبنان جزءاً منها، نتتبع الغرب حذو القذة بالقذة، ((حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبِّ خَرْبٍ)) لدخلناه وراءهم. كما أخبر نبينا الصادق المصدوق - عليه الصلاة والسلام - .

وهذا نراه في تشبه أبنائنا بأبنائهم، وبناتنا ببنايتهم، ورجالنا برجالهم، ونسائنا بنسائهم....

وفي تشبه حكامنا بحكامهم...

فحكام الغرب لا يتوانون لحظة عن دعم أي عمل فيه قتل وإبادة للمسلمين، والأمثلة كثيرة: اليوسنة، كوسوفا، سربينتشا، العراق، أفغانستان. لذلك نجد أن حكامنا في بلاد الشام، وتأثراً بالغرب، يجهدون في إبادة شعوبهم بجامع كون غالبيتهم من المسلمين، ومن أيدهم من غير المسلمين يأخذ حكمهم.

وهل خلق الحياء خاص فقط بالمؤمنين؟

طبعاً لا؛ فهذا الخلق إنساني بشري، حيث وجد الإنسان، ومنذ وُجد، وقد وصفه النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه من كلام النبوة الأولى، مما يفهم منه أن أول من قاله هو سيدنا آدم - عليه السلام - .

قال الإمام الخطّابي - رحمه الله تعالى - في معالم السنن: "معنى قوله (النبوة الأولى) أن الحياء لم يزل أمره ثابتاً واستعماله واجباً منذ زمان النبوة الأولى، وأنه ما من نبي إلا وقد ندب إلى الحياء وبُعِثَ عليه، وأنه لم يُنسخَ فيما نُسخَ من شرائعهم ولم يُبدلَ فيما بُدِّلَ منها؛ وذلك أنه أمر قد عُلِمَ صوابه، وبان فضلُه، واتفقت العقول على حسنه. وما كان هذا صفته لم يجز عليه النسخ والتبديل".

من هنا كان قول الإمام الواحدي: "الاستحياء من الحياة، واستحياء الرجل من قوة الحياة فيه لشدة علمه بمواقع العيب. قال: والحياء من قوة الحسّ ولطفه وقوة الحياة".

وقال الإمام ابن فُورَك في مشكل الحديث وبيانه: "يُريد إذا لم يستح الرجل ركب كل فَاَحِشَّة وقارف كل قَبِيح ولم يحجزه عَن ذَلِكَ دين وَلَا حَيَاء".

لذلك؛ فمن كان ذا حياة وَعِلْمٍ بمواقع العيب كان الحياءُ من سجاياه وخلقِه. أما من كان ممن قال الله - تعالى - فيهم: {أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون}، أو ممن قال فيهم: {فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور}. فأمثال هؤلاء لا يجد الحياء إلى مسلكهم سبيلاً. وصدق القائل:

ليس من مات فاستراح بميتٍ **** إنما الميتُ ميتُ الأحياءِ

وأكثرُ مَنْ هذا حاله الذي اغترَّ بقوته المادية، وظنَّ أن أحداً ممن يستضعفهم لن يقدر على مغالبتِه، فيتسلط ويتجبر ويقتل ويبيد أجيالاً، كما فعل فرعون، فقط لأنه يرى أن قوته تعطيه هذا الحق. فأمثال هذا ليسوا من البشرية في شيء بل ولا من الحيوانية، لأن الحيوان عنده قوانين خاصة تحكم علاقة أصنافه بعضها ببعض، أما هذا فلا شيء يردعه، كالأعرابي الذي كان ينتمي إلى قبيلة قوية في عددها وعدتها، سئل يوماً:

- ما العدل عندهم؟

- قال: أن أسطو على غنم جاري فأخذها.

- فقيل له: إذا كان هذا العدل، فما الظلم عندهم؟

- قال: أن يأتي جاري ويطالب بغنمه.

هكذا هي مفاهيمُ مَنْ ركن إلى القوة بعيداً عن الحق، يضع معاني جديدة لمصطلحات معلومة لتناسب جبروته وانحرافه وظلمه وتسلطه على رقاب البشر، وإن كانت هذه المعاني تخالف كل التاريخ وكل القيم الإنسانية، فهذا كله لا يهم لأن صاحبنا فقد كل ما له علاقة بالحياء.

فمن آثار انعدام الحياء مثلاً، ما نسمعه دائماً من ممثلين للمحافل الأممية من أن هناك مستويات مقلقة لأعداد القتلى في سوريا يومياً.

ما الذي يعنيه هذا؟

هذا يعني أن على النظام السوري ألا يسرف في القتل اليومي، وعليه -مثلاً- أن لا يتجاوز العشرين قتيلاً في اليوم الواحد، فإذا تجاوزه فهذا مدعاة للقلق، أما إذا كان ضمن المستوى المقبول، فيمكن للمجتمع الدولي أن يتفهم ذلك.

فهل هذه دعوة لوقف القتل؟

ومن آثار انعدام الحياء مثلاً، إطلاق سراح العميل فايز كرم من سجون الدولة اللبنانية.

مع العلم أنه أدين قضائياً وبالأدلة الثابتة الدامغة أنه كان يتعامل مع العدو الصهيوني، وهو كان عميداً في الجيش اللبناني. وأقيمت له احتفالات طنانة رنانة من عائلته الصغيرة أسرته والكبيرة التيار الوطني الحر واستقبل في بلدته زغرتا بالزغاريد والابتهاج، مع العلم أن بلدة زغرتا محسوبة تاريخياً على النظام السوري، ومعلوم أيضاً أن زغرتا من أهم حلفاء (المقاومين الأبطال) في جنوب لبنان، ومعلوم أيضاً وأيضاً أن النظام السوري وحكام زغرتا حلفاء للمقاومة...

والسؤال: ما الرابط بين العمالة لليهود، وبين حزب المقاومة، وبين زغرتا، والنظام السوري؟ إنها معادلة صعبة الفهم، إلا من خلال قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : ((إذا لم تستح فاصنع ما شئت)).

ثم إن العجب لا ينقضي من دولتنا المبجلة التي أطلقت سراح (العميل)، كيف أنها ومنذ أكثر من خمس سنين تعتقل شبانا اللبنانيين، طبعاً لم يتعاملوا مع العدو، ولكنهم تعاملوا مع دينهم وقيمهم، تعتقلهم دون محاكمات، تعتقلهم اعتقالاً إدارياً، أكثريتهم حتى اليوم لا يعلمون ما هو جرمهم!. في الوقت الذي تقام الفعاليات في لبنان للتضامن مع الموقوفين إدارياً في

فلسطين، وبرعاية ومشاركة أحزاب المقاومة. فكيف يمكن أن نفهم هذه المعادلة الصعبة؟

يمكننا أن نفهمها من خلال ((إذا لم تستح فاصنع ما شئت)).

والأمثلة تطول، وخلاصة الكلام نحن نعيش الزمن الذي يؤتمن فيه الخائن، ويخون فيه الأمين، ويصدق فيه الكاذب، ويكذب

فيه الصادق، ويتكلم في الناس الرؤيضة!!! وللحديث بقية.

المصدر: رابطة العلماء السوريين

المصادر: